

التجارة الخارجية والأسواق في إمارة ابن القاضي في العهد العثماني.

external trade and markets in the principality of ibn el kadi during the Ottoman era

D^r. BOUMOULA Nabil, Université Mohamed BOUDIAF- M'sila, Algérie

د. بومولة نبيل، جامعة محمد بوضياف- المسيلة، الجزائر

nabil.boumoula@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2024/06/27

تاريخ القبول: 2024/04/25

تاريخ الاستلام: 2024/02/16

ملخص:

تعتبر التجارة وانعقاد الأسواق من بين الأنشطة الاقتصادية المهمة التي أدت دورا في تطور الشعوب خلال الفترة الحديثة، ومنطقة القبائل بدورها قد ساهمت في النشاط الكبير الذي عاشته الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك بفضل موقعها الجغرافي الوسطي الذي يربط بإيلك الشرق بدار السلطان، وكذلك يربط بين مختلف الطرق التجارية القديمة مثل طريق برج حمزة ومجانة وقلعة بني عباس والبيبان... فهذا الموقع جعل منها منطقة عبور القوافل التجارية بين الشرق والوسط، كما أن إشرافها على الشريط الساحلي فتح أمامها إمكانية الانفتاح على العالم الخارجي عبر الموانئ البحرية التابعة للمنطقة كميناء دلس وأزفون وبجاية، فهذه العوامل ساعدت وساهمت في النشاط التجاري الداخلي والخارجي. كلمات مفتاحية: التجارة- الأسواق- الأنشطة الاقتصادية- إمارة ابن القاضي- الطرق التجارية- التجارة الداخلية والخارجية.

Abstract :

Trade and market-making are among the important economic activities that have played a role in the development of peoples during the modern period, and the region of Kabyle contributed to the great activity that Algeria experienced during the Ottoman era, thanks to its central geographical location, which connects the Eastern Bayle to the House of the Sultan, and also links several ancient trade routes such as Burj Hamza, Majana, Beni Abbas Castle, Al-Biban.... This location has made it a transit area for trade caravans between the east and the centre, and its supervision of the coastal strip has opened up the possibility of opening up to

the outside world through the region's seaports such as Dalles, Azfoun and Bejaia. These factors have helped and contributed to internal and external commercial activity ..

Key words: Trade - Markets - Economic Activities - Emirate of Ibn Al-Qadi - Trade Routes - Internal and external trade.

Résumé :

Le commerce et la tenue des marchés sont parmi les activités économiques importantes qui ont joué un rôle dans le développement des peuples durant la période moderne, et la région de Kabylie a contribué à la grande activité qu'a connue l'Algérie durant l'ère ottomane, grâce à sa situation géographique centrale, qui relie le Bailek oriental à la Maison du Sultan, et qui relie également plusieurs anciennes routes commerciales telles que Burj Hamza, Majana, le château de Beni Abbas, Al-Biban.... Cette situation en a fait une zone de transit pour les caravanes commerciales entre l'est et le centre, et sa supervision de la bande côtière a ouvert la possibilité de s'ouvrir au monde extérieur à travers les ports maritimes de la région tels que Dalles, Azfoun et Bejaia, ces facteurs ont aidé et contribué à l'activité commerciale interne et externe.

Mots clés : Commerce - Marchés - Activités économiques - Émirat d'Ibn Al-Qadi - Routes commerciales - Commerce intérieur et extérieur.

مقدمة :

تقوم بالتجارة الخارجية عادة الحكومات، أو الهيئات الممثلة لها كما يقوم بها بعض الأفراد، من خلال الشركات التجارية التي ينشئونها، ونظرا لكون منطقة القبائل تابعة إداريا إما لبابك الشرق بالنسبة للجهة الشرقية أو إلى دار السلطان بالنسبة للجهة الغربية فإن حكومة الداى هي التي تشرف على التجارة الخارجية مباشرة، أو عن طريق ممثلها أو الشركات المحتركة لبعض أنواع الصادرات والواردات كشركة اليهوديين بكري وبوجناح المشهورة، والتي اتخذت من قسنطينة مقرا لها منذ أواسط القرن الثامن عشر، فإنها كانت تعتمد أساسا في تصدير بضائعها على موانئ عنابة وسكيكدة والقلّ فبقي ميناء بجاية بعيدا إلى حد ما، عن الاستغلال الذي كان عليه قبل سقوط المدينة في يد الإسبان، بالرغم من العلاقات التجارية التي كانت تربطها مع القارة الأوروبية وكثير من دولها.

ومن خلال هذه الدراسة سنحاول معرفة أهم مظاهر التجارة الداخلية والخارجية ونظام المبادلات القائم في هذه الفضاءات الحساسة (الأسواق) في إقليم إمارة كوكو، وما حقيقة الدور الذي تؤديه في حياة الساكنة؟ وما هو حجم ونوع المبادلات القائمة بتعدد نظم البيع والصرف لذلك العهد؟ ولتحقيق ذلك اعتمدنا على منهج قائم على الدراسة الوصفية والاستقرائية والتحليلية المقارنة لماهية وحجم نظم المبادلات التجارية القائمة في هذا النطاق الجغرافي الذي أصبحت إيالة الجزائر وبإيالك الشرق يسهمان بدور فعال في متابعته وتنظيمه تحت إشراف قوى محلية ممثلة في أمراء أولاد القاضي بكوكو، وبني عباس بنطاق القلعة.

كان الهدف من الدراسة والموضوع معرفة حجم المبادلات التجارية وتنوعها في نطاق الدراسة وكذلك معرفة طبيعة السلع المحلية والمستوردة التي ترد إلى وتخرج من هذه الأسواق، بالإضافة إلى معرفة مختلف العملات المتداولة بها وحجم تأثيرها، بما يبرز قوة الدولة ومدى تحكمها في نظام العملات والصرف في هذه المعاملات والبيوع.

إن التجارة هي العصب الحساس والمهم بالنسبة للسكان، إذ لها علاقة مباشرة بالفرد كمورد هام للمواد المستجلب والمباعة على حد سواء، وهذا النوع من التجارة كان يتم في القرى والمدن الكبيرة التي عرفت تبادلا واسعا للسلع بين مختلف مناطق البلاد نتيجة العوامل التالية:

- تحقيق الفائض في المنتجات والمحاصيل الفلاحية كالزيتون، وهو الأمر الذي جعل سكان المنطقة يعملون على نقله إلى الأسواق الداخلية، واستبداله بالمنتجات التي تحتاج إليها المنطقة (Oulhadj, 2018, p270).

- وجود بعض المنتجات الصناعية الرائدة بالمنطقة والتي لها سمعة كبيرة مما جعل التجار يعملون على نقلها إلى الأسواق الداخلية خاصة المنسوجات الصوفية والأسلحة والأدوات الفلاحية.

- حاجة السكان إلى السلع الغير منتجة محليا (سعيدوني 2000، ص108).

- سهولة الاتصال بين السكان والانتقال بين أسواق البلاد نتيجة عدم تعرض السلع إلى الرسوم الجمركية، ما عدا الضرائب التي تفرض على بعض المنتجات.

- تدخل السلطة في تنظيم الأسواق التجارية وتوزيعها والإشراف عليها.

تنتشر الأسواق في مختلف أنحاء منطقة القبائل، وتأخذ أسماءها من القرى التي تعقد فيها أو من أيام الأسبوع التي تحدد السوق، فمثلا يكون السوق يوم السبت في عرش بني يحيى، ويوم الأحد في إرجن، والأربعاء ببني واسيف ويوم الاثنين بأقبو (Oulhadj, 2018, p317).

فهذه الأسواق يتم الاتفاق عليها بين السكان والأعراس القريبة إليها وتحدد نوعية السلع التي تباع فيها، والأيام التي تعقد خلالها، حتى يتسنى للمواطنين قضاء مأربهم المختلفة.

إن تدخل السلطة في تنظيم الأسواق من بين أهم العوامل التي ساعدت، في مراقبة السلع وفرض الضرائب عليها خاصة الأسواق الأسبوعية (Aucapitaine، 1859-1860، p74) التي تكون أماكن انعقادها قريبة من أبراج المراقبة كسوق حمزة وسوق مجانة وجمعة الصهاريج وغيرها (Oulhadj، 2018، pp370-375)، أما بالنسبة إلى نوع آخر من التجارة الموجودة بالمنطقة، فهي التجارة المتنقلة التي يقوم بها تجار ينتقلون بواسطة دوابهم، أو حملا على ظهورهم بين القرى والتجمعات الريفية، والتي تختص عادة بالعطور وبعض المستلزمات اليومية والتي ذكرها صاحب سيرة الزواوة في قوله: «فلكثر تجارهم يشتررون العطر من المدن ويبيعونها في بلاد العرب والبعض يبدلها بالصوف» (مجهول، دت، و15) وهذا ما يبين كذلك نوعية هذه المواد التي يشتريها هؤلاء التجار المتجولون ويعيدون بيعها إضافة إلى كيفية نقلها (كاربخال، 1989، ص377).

1\ التجارة الخارجية:

تقوم بالتجارة الخارجية عادة الحكومات، أو الهيئات الممثلة لها كما يقوم بها بعض الأفراد (الزيري، 1984، ص77)، من خلال الشركات التجارية التي ينشئونها، ونظرا لكون منطقة القبائل تابعة إداريا إما لباليك الشرق بالنسبة للجهة الشرقية وإلى دار السلطان بالنسبة للجهة الغربية فإن حكومة الدايا هي التي تشرف على التجارة الخارجية مباشرة (جهيماب) (الملحق رقم: 01)، أو عن طريق ممثلها أو الشركات المحتكرة لبعض أنواع الصادرات والواردات كشركة اليهوديين بكري وبوجناح المشهورة (الزيري، 1984، ص83)، والتي اتخذت من قسنطينة مقرا لها منذ أواسط القرن الثامن عشر، فإنها كانت تعتمد أساسا في تصدير بضائعها على موانئ عنابة و سكيكدة و القلّ فبقي ميناء بجاية بعيدا إلى حد ما عن الاستغلال الذي كان عليه قبل سقوط المدينة في يد الإسبان، بالرغم من العلاقات التجارية التي كانت تربطها مع القارة الأوروبية (كاربخال، 1989، ص377) وكثير من دولها.

إلا أن ذلك عرف تراجعاً في العهد العثماني نتيجة اتخاذ مدينة الجزائر عاصمة للدولة ومقرا للمؤسسات والشركات، فانتقلت إليها الأسر الثرية التجارية، وبذلك تراجع دور ميناء بجاية، والشئ نفسه بالنسبة إلى الموانئ الأخرى كميناء أزفون، وميناء دلس فهذه الموانئ لم يكن لها دور كبير ما عدا فترة بروز إمارة آل القاضي، التي استخدمت هذه الموانئ للاتصال بالعالم الخارجي (ساحي، 2015، ص118).

وعلى العموم فإن منطقة القبائل عامة وموانئها خاصة تراجع دورها التجاري فيما يخص التجارة الخارجية خلال هذه الفترة وهذا الذي جعلها لم تواصل الدور التجاري الذي كانت عليه في العهود السابقة (العهد الحفصي الحمادي)، ولم تساهم في إحداث ثورة داخلية (الزيري، 1984، ص111) وانقلاب اقتصادي مثل الدور الذي لعبته التجارة في أوروبا خلال الفترة الحديثة.

إلا أن حاجة المنطقة وحيوية موقعها جعل الموانئ الساحلية لمنطقة القبائل تحاول استرجاع مكانتها التجارية في الحوض المتوسطي عامة (وثيقة رقم 39، جمادي الأولى سنة 1200 هـ) (الملحق

رقم: 02)، على الرغم من الاتجاه العام للسياسة المتبعة من قبل الدولة، والتي تعتمد على الغزو البحري في إثراء خزينتها، أي أن الموانئ كانت قد ساهمت في نشاط الحركة التجارية وأصبحت أكثر استعمالاً لأغراض عسكرية منه للأغراض التجارية (الملحق رقم: 03).

أما عن التجارة مع الأقطار الإفريقية فكانت تتم مع القوافل (بوعزيز، 1980، ص ص 13-30) الصحراوية الكبرى التي تغدو وتذهب بين موانئ المنطقة وأسواق وواحات أعماق الصحراء الكبرى الشتاء والنيجر ومالي وإفريقيا الوسطى والسنغال وتوات والسودان الغربي، ومن مميزات هذه القوافل أنها كانت تتاجر بالبضائع المحلية وبضائع أوروبا المستوردة فيستغل السكان مرورها بترابهم ومناطق تجمعهم فيحتشدون بسلعتهم وببضائعهم إليها (بومولة، 2013، ص 50).

ومن أهم المواد التي تستوردها إمارة كوكو نجد التبغ من السودان (Aucapitaine, 1859-1860, p73)، وكذلك العبيد الذين يستخدمهم سكان القرى في الأعمال الفلاحية الشاقة، وكذلك العاج المستخرج من أنياب الفيلة، الذي يصل المنطقة عبر واحات الجنوب، ومن هنالك ينقله تجار الصحراء نحو المناطق الشمالية (بومولة، 2013، ص ص 50-51)، كما تستورد كذلك مواد أخرى مثل ريش النعام والبن والسكر.

تجدر الإشارة أن سكان إمارة كوكو كانوا يتعاطون صناعة النقود (السكة المزورة) وهم معروفون بذلك حيث لم يكن للمملكة عملة خاصة بها رغم وجود دار لصك العملة منذ عهد الحماديين. فقد تداولت العملات المعروفة في الجزائر ودول البحر المتوسط داخل الإمارة (قاسمي، 2007، ص 80) وفي مختلف تعاملاتها الاقتصادية سواء الداخلية أو الخارجية ومن بين العملات السائدة آنذاك، نجد البياستر الإسبانية والريال شكوتي (الرباعي)، وهي عملة التجارة الأوروبية في الجزائر قبل الاحتلال ونفس الشيء بالنسبة لقلعة آث عباس التي تتعامل بالعملة السائدة في باقي أرجاء البلاد (BOUMOULA, 2015, p28).

وعمد هايدو إلى ذكر العملة الزيانية التي كانت تتداول في مملكة كوكو وأيضا الدينار الحفصي والدورو الإسباني المقابل للإيكو والدوكا، وأيضا الميثقال الفاسي والسكينة التركية بالإضافة إلى السلطان الذهبي والموزونة المغربية التي تساوي صوردي ونصف، وهي متداولة بكثرة في منطقة القبائل (Oulhadj, 2018, p365)، وهناك المحبوب التونسي التي تساوي 20 موزونة ونجد أيضا الريال الكورنتيو وهو يساوي 4 ريال كواتر أي 40 سنتيما، وكان سكان منطقة القبائل يميلون كثيرا إلى هذه الأخيرة من أجل إذابتها قصد صناعة الحلبي الذهبية وعلاوة على ذلك نجد الإيكو الفرنسي، وهي نفس قيمة الإسباني والميثقال الفاسي الذي يساوي 170 أسيرا، وهناك الدورو الجزائري الذي يساوي 2 بوجو (خوجة، 2005، ص 29).

2 \ الأسواق في منطقة كوكو ودورها السياسي والاجتماعي:

تعتبر الأسواق فضاءات اجتماعية واقتصادية تعبر عن مدى نشاط منطقة معينة كما تعتبر في نفس الوقت فضاءات سياسية غالبا ما فرضت السلطات العثمانية قبضتها على أسواق منطقة الزاوة للضغط على القبائل التي لا تدفع الضرائب أو المعادية للسلطة (boumoula, 2012,p159) وكانت من استراتيجيات الأتراك العثمانيين لمحاولة إخضاع المنطقة بالتحكم في الأسواق الأسبوعية، إستراتيجية الأتراك العثمانيين اتجاه القوة الناشئة ببجاية (بومولة، 2017، ص 170) وكان نصيب منطقة الزاوة (الشرقية والغربية) من هذه الأسواق وافر وقد قدرت في مطلع ثلاثينات القرن 14 م بـ 68 سوقا منها 55 في منطقة القبائل الغربية لوحدها (شويتام، 2009، ص 341).

فغالبا ما يقتدر اسم السوق الأسبوعية باليوم الذي يعقد فيه، والقبيلة التي لها شرف عقد السوق والتي تقدم المكان للباعة والمتسوقين على حد سواء، فنجد مثلا اسم سوق الأربعاء آيت ابرائن وسوق الأحد لبني بوشعاب، في بعض الأحيان يطلق اسم السوق على حساب المكان الذي حدثت فيه معركة أو صراع تاريخي مثل سوق سبت علي خوجة. (هانوتو و لوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

ولاختيار موقع السوق يخضع إلى عدة قواعد حسب كل قبيلة وغالبا ما يكون السوق خارج النسيج العمراني (Djoudi, 2018,p360) وعادة ما تقام على مقربة من المجاري المائية أو بالقرب من عين أو منبع، ومن الأفضل أن تكون مجاورة لمنطقة ذات أشجار توفر الظل، فالسوق الذي يوفر الراحة ويفسح المجال لقضاء اليوم دون عناء، وهو عادة الأكثر استقطابا وجذبا للناس (هانوتو و لوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

وكذلك من الأماكن القريبة من المساجد أو الأضرحة الخاصة بالمرابطين وشيوخ الدين لتبيان مدى عراقية القبيلة المنظمة للسوق، وكذلك كنوع من الأمان الذي يبعث في روح قاصديها (p360, Djoudi, 2018)، وغالبا ما يتولى شيخ القبيلة مهمة السير الحسن للسوق ويعرف بشيخ السوق (هانوتو و لوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

أما بالنسبة لميلاد هذه الأسواق فيؤكد مارمول تواجدها بالمنطقة أقدم بكثير من الأتراك العثمانيين ويخص بالذكر سوق جمعة الصهاريج بقوله: «على سفوح الجبل المطل على السهل، نستطيع عدّ أكثر من خمسمائة بيت (جمعة الصهاريج) والذي ينقسم إلى عدّة أحياء أين تعقد السوق كل يوم جمعة» (كاربخال، 1989، ص 354).

وهي غالبا ما تعتبر أماكن سياسية بامتياز، ففي السوق يمكن سماع حظر السفر والدعوة إلى حمل السلاح ضد قبيلة معينة، والسماح بقطع المحاصيل الزراعية بعد انتهاء فترة المنع وجميع الأخبار التي تهم حياة الأفراد و القبائل، فهناك تداول الأخبار السياسية (Oulhadj, 2018, p262-263) المثيرة، والتي سيتم نشرها والتعليق عليها فيما بين الجماعة (تاجماعت) أو مجلس القرية، وكذلك في السوق تناقش القضايا العامة للبلاد، وتطرح مصالح الحزب (الصّف) والقبيلة والكنفدرالية، وهناك كذلك

يمكن الاطلاع على الشؤون الخاصة لما يدور بين القرى التي قد تقوم باتصالات مع قبائل مجاورة من أجل إثارة الأحقاد وتدمير الدسائس والمؤامرات و نسج مخططات الانتقام (هانوتوولوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

1/4/6 أنواع الأسواق:

تختلف وتنوع الأسواق في منطقة الزواوة (الشرقية والغربية) حسب أعراف وتقاليدها كل منطقة، وحسب التنظيم السياسي والحزبي (الصفوف) لكل منطقة، وهذا نظرا لأهمية السوق في التنظيم الاجتماعي لمنطقة القبائل، فقد أحصى كارت أكثر من 83 سوقا بمنطقة القبائل (Carette, 1844,p402) ، أغلبها أسواق تسيطر عليها سلطات الإمارة ، وهي الأسواق الداخلية وأكثر من 78 سوقا تسيطر عليها القبائل الغير خاضعة لسلطة الأتراك ولا سلطة الإمارة.

أ - السوق المحلية (Marché local): وهي النواة الأولى للأسواق التجارية الكبرى الخاصة بالمناطق البعيدة عن الإمارة وتعرف أنها أماكن المقايضة واستبدال البضائع ببعضها البعض، وتشكل أساسا من السكان المحليين لمنطقة معينة أو لقرية معينة حيث لا يدخلها أجنبي عن هذه القرية، وعادة ما تتداول ما تنتجه البساتين الخاصة بكل عائلة، ويصل أقصى تقدير إلى أربعة قرى على الأكثر، وهي المرتبطة ببعضها البعض بالعلاقات الاجتماعية المتينة والمصاهرات (Djoudi, 2018, pp262-263) وغالبا ما تكون تحت عين سلطة الإمارة باعتبارها تجمعا سياسيا قد يشكل تهديدا لهذه الأخيرة.

ب- السوق القبلية (Marché tribal): وهي أكبر مساحة وعدد الباعة من السوق المحلية، وتتكون غالبا من مجموعة من القرى والمداشر التابعة لقبيلة معينة والتي تمتلك الفضاء (مكان انعقاد السوق)، في هذه السوق تستطيع القبائل المجاورة أن تشارك فيه سواء بالبيع أو الشراء، وحتى أنها قد تجلب قبائل من نواحي بعيدة حيث تعتبر كمصدر لأموال المكوس التي تحصل عليها القبيلة المنظمة لهذه السوق، ويتبادل فيها السلع بالمقايضة أو بالأموال المعروفة آنذاك، حيث تفرض ضريبة غير مباشرة على أهل القبيلة، زهيدة على بيع الأماكن والمواقع وضريبة تحت تنظيم (أمين السوق) (هانوتو و لوتورنو، 2013، ص ص 119-125) ، ويستفيدون بدورهم بحق الحماية (لعناية)، فالشخص الغريب الذي يأتي إلى هذه السوق ثم ينصرف يكون محميا على اتساع مساحة أرض السوق فالعناية (الحماية) بالنسبة لأهل القبيلة شرف لا يجب أن يمس وإلا أصبحت سمعة القبيلة في الحضيض (Oulhadj, 2018, pp262-263) ، وغالبا ما يلتقي فيها أفراد القبائل التي هي في حالة حرب أو صراع مع نظرائهم وجها لوجه بلا عتاب ولا ضغينة، و ينهون بيعهم و شرائهم في سلام وهي من واجبات أمين السوق الذي يستعين بمجموعة من رجاله (هانوتوولوتورنو، 2013، ص ص 119-125).

ج- السوق الكنفدرالية: وهي أكبر وأوسع من الأسواق المذكورة سابقا من حيث عدد الباعة والفاصلين لهذه السوق وكذلك من حيث المساحة (Djouidi,2018,p362) ، وغالبا ما يكون تحت الحراسة الأمنية للسلطة العثمانية، إذ من هذه الأسواق تعقد الهدنة أو الحرب ضد المصالح العثمانية في المملكة وهي السوق التي تستطيع أن تجتمع بها أغلب القبائل التابعة لسلطة إمارة كوكو، وغالبا ما تكون من القبائل الموالية لها. فالعلاقة بين سلاطين الإمارة و الكنفدرالية هي من تحدت تواجد السوق من عدمها (Djouidi, 2018,pp262-263) ، على كل فرد ومواطن أن يتماشى سلوكه مع هذه الرغبة وكبير السوق (ameqran n suq) يعامل الأجانب بتسامح أكثر من مواطنيه، هؤلاء الآخرين لا يرضون بهذا التحيز و يبدوون تدمرا مما يدفع قبيلة هؤلاء والذين مسهم الأذى أخذ حقوقهم بأيديهم عندما لا تجد تظلماتهم قبولاً لدى الطرف الآخر (هانوتو ولوتونو، 2013، ص ص 119-125).

رئيس السوق لا تهمة وتعنيه سوى الانتهاكات والمخالفات التي تمس بالأمن العام وحرية المعاملات التي تجري في السوق، فجميع النزاعات المدنية أو التجارية التي قد تحدث تحال على مرابط (رجل دين) القبيلة الذي يقوم مقام القاضي ويدعى عالم السوق، يقيم في مكان خاص به ويحيط به جميع المرابطين المساعدين، إذ كان حضور أطراف القضية أمام العدالة قد تمت بواسطة رئيس السوق أو من طرف مساعديه فإن كلمة الفصل الأخيرة تعود في موضوع الخلاف إلى العالم، ولكن يحق لأطراف النزاع طرح القضية على محكمة أخرى إذ كان ضروريا، ومن مهمة رئيس السوق تنفيذ قرارات العالم واحترام مكانته، وكل تجاوز لحدود اللياقة والمس بهيبة العدالة جزاؤه العقاب (Carette, 1844,pp356-359).

حصيلة الغرامات وعائدات بيع أماكن الكياليين تبقى تحت تصرف رئيس السوق تلك المبالغ المالية تستخدم في صيانة وتعبيد الطرقات المؤدية للسوق وصيانة العين (النبع) والمسجد أما المبالغ الباقية فتخصص لدفع المصاريف الخاصة للقبيلة كلها.

أما القبيلة التي ليس لها سوق، فتبادر إلى إقامة واحد في أراضيها وتتم المحافظة على نفس أيام افتتاح السوق القديم قبل نشوب الحرب، وعندما يحل السلام يتم إزالة السوق الجديد، وإذا وقع خلاف مدني وأدى إلى شطر القبيلة، فالحزب إذ كان على مستوى من القوة في طرد العدو يضع يده على السوق والغرامات المحصّلة خلال فترة الاضطرابات و تبقى ملكا للحزب (هانوتو و لوتونو، 2013، ص ص 119-125). بالإضافة إلى أهم الأسواق التي تحدثنا عنها فإن هناك أنواعا أخرى من الأسواق التي تعقد في منطقة القبائل وغالبا ما تكون خارجة عن نطاق الحدود الجغرافية للمنطقة المقصودة، على سبيل المثال سوق المنطقة وهو الذي يجمع بين سكان الزواوة الغربية (إمارة كوكو) والزواوة الشرقية (إمارة البيبان) وغالبا ما يعقد هذا النوع من السوق كل خمسة عشرة (15) يوما وأكثر أو حتى مرة كل شهر، وقد جرت العادة أن يعقد بالتداول فمرة بزواوة الغربية ومرة أخرى بالزواوة الشرقية (Djouidi,2018,pp369-370).

هذه الأسواق الجهوية لها تأثير واسع على الأحداث في منطقة القبائل فغالبا ما تفرغ المنطقة من رجالها ولا يبقى في البيوت إلا النساء كون هذه السوق ذات طابع سياسي أكثر مما هو اقتصادي، فيجتمع

الرجال ويتوجهون إلى هذه السوق لمعرفة الأحوال السياسية للبلد وما هي الأمور الجديدة، وأكبر هذه الأسواق الجهوية في منطقة الزاوة الغربية نجد سوق سيباو (Carette, 1844, p353)، ويقع هذا السوق في قلب منطقة سيباو على الحواشي لنهر سيباو، واختيرت هذه المنطقة نظرا لسهولة الطرق المؤدية إليها وقربه من مياه الواد وعلى ضفافه تباع أعلاف الماشية لأن السوق تستمر إلى غاية نهاية اليوم.

ويذكر كارت أن هذه السوق تأتيها القبائل من كل مكان من بلاد القبائل، وحتى من جارتها قبائل البيبان وهذا هو الهدف من إيجاد هذا النوع من الأسواق (Oulhadj, 2018, pp369-370)، فنجد آث جناد، آث واغنون (تاقصابت) أنعمراوة، آث خليلي، أنائراثن، آث يحي (ميشلي) أثوشعابيب، وآث غبري، هذا فيما يخص أهم أعراش الزاوة الغربية التي كانت ترتاد السوق باستمرار، كما نجد كذلك قبيلة بني شلمون من منطقة إفليسناؤمليل وقبائل يسر التابعة لبومرداس والتي تشتري الزيت والتين المجفف بكميات كبيرة، وتبيعها بأثمان زهيدة بأسواق مدينة الجزائر، وبالمقابل تشتري الحبوب والقمح والشعير من هذه الأسواق (Carette, 1844, p353).

أما من قبائل البيبان (بني عباس) من الجهة اليمنى للإمارة فنجد قبائل افناين أكفادو التي تعودت التسوق في منطقة سيباو وكانت تقصدها خاصة للتبضع بالوسائل الفلاحية والأدوات الزراعية وكذلك أدوات الحدادة (بومولة، 2009-2010، ص 99).

من الأسواق المعروفة كذلك بحجمها الكبير (سوق إقليمية) نجد سوق الأحد لمزالة l'hadNimezalin والكثيفة جدا التي ترتادها قبائل بني خلفون وبني يني والمعروفة بتجارها بالعنب المجفف، وكذلك قبائل نزليوة ومعاتقة وقبائل يسر والعمراوة.

وفي الجهة المقابلة لإمارة كوكو نجد أسواق إمارة بني عباس التي يرتادها كذلك أعراش وقبائل إمارة كوكو ونذكر أهم هذه الأسواق (Djoudi, 2018, p368):

سوق الأربعاء عند بني بومسعود، وهي سوق تنعقد في القبائل الشرقية وتعتبر من أكبر أسواق المنطقة المقابلة لإمارة كوكو، ينعقد في منطقة تسمى إغياؤبرواق وتقصدها القبائل من الجهات الأربع للزاوة (Djoudi, 2018, p371)، وتعطى الأولوية في اختيار الأماكن لأصحاب الأرض التي تقام عليها السوق والسكان المحليين. ومن القبائل التي ترتادها نجد قبائل إمزاين (المزاية) وآيت ميمون وبني آيت عمر وبني صنهاجة قرب منطقة أماسين وبني محمد بكنديرة وغالبا ما تختص هذه السوق بالمواد الضخمة لخدمة الأرض والفلاحة (Daumas, 1847, pp433-434). (E)

أما السوق الثانية الأهم في منطقة الزاوة الشرقية فهي سوق الاثنين عند إفناين (تابعة لأكفادو) وهي سوق معروفة في جل المناطق المحيطة بمنطقة القبائل، حيث تنعقد هذه السوق عند آث أحمد أو منصور والتي تقصدها الأعراش البعيدة وحتى من بجاية المدينة مثل إمزاين وبوداود من منطقة أقبو وما جاورها حتى مرابطي منطقة تازروت قرب الحدود مع القبائل الغربية (تيزي وزو)، آث أومالكو، آث أحمد أوقارت من جبال إيبارسن وبني كسيلة من جهة الشواطئ.

ولدى هذه السوق صبغة دينية حيث كان شيوخ الزوايا والمرابطين يقصدونها بكثرة فمنهم المرابط سيدي أمحمد أو مالك المعروف بمنطقة أسيف الحمام، وآيت أحمد المعروفين بزواياهم حيث كانوا يقومون بإلقاء الخطب الدينية المؤثرة، ولا يستبعد الكثير من المؤرخين أنّ رجال الدّين كانوا يقصدون هذه السوق لكسب الولاء والطاعة في هذه المنطقة (ظاهرة المرابطية) (Djouadi, 2018, p371).

ولقد أسهبت نوعا ما في موضوع أسواق إمارة كوكو، ذلك لأن دور السوق في الحياة الاجتماعية محوري وكانت له انعكاسات حتى على المستوى السياسي، إذ تعتبر الأسواق في منطقة القبائل فضاءات سياسية مفتوحة غالبا ما اتخذت بها قرارات سياسية خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بالسلطة المركزية بدار السلطان وسكان الإمارة إذ كانت السوق في كثير من الأحيان مركزا لجمع ولم شمل القبائل في حالة الحرب والصراع كما أنّ هذه الأسواق تعتبر الشريان الاقتصادي الوحيد والهام بالنسبة لبلاد مغلقة على العالم الخارجي (ساحي، 2015، ص 141)، كما تعتمد عليها الزاوة - الأسواق الكبيرة - في تصريف الفائض من منتوجاتها الزراعية والحيوانية والصناعية ومن خلالها تحاول توفير حاجياتها من المواد الغذائية والأدوات المعدنية وأدوات الفلاحة وكذلك تثرى الاقتصاد بالمواد الإستراتيجية كالفضة والبارود والأسلحة.

2/4/6 العملات المتداولة:

اهتم سكان إمارة كوكو كذلك بصناعة السكة باعتبارها من العوامل المهمة في الحركة التجارية و التي كانت تصنع في محلات وجدت لهذا الغرض (كاربخال، 1989، ص 376) وكانت على شكل قطع صغيرة (الوزان، 1985، ص 102) تصنع من الذهب والفضة وتنقش بمهارة عالية (خوجة، 2005، ص 29). تجدر الإشارة هنا إلى أنّ الإمارة كانت تتعامل بالعمولات المعروفة آنذاك والخاصة بعملة السلطة المركزية أو العمولات الأوروبية ولم تكن لها عملة خاصة بها رغم توفر مصانع خاصة بالعملة، وقد انتشرت هذه الصناعة (صك العملة) في كل من منطقتي إيلولة وبني اللّتين كانتا تحترفان صناعة الفضة والذهب وصك العملة منذ عهد بجاية الحمادية (ساحي، 2015، ص 152). وقد تداولت في المملكة عدّة عملات سواء في معاملات الدّاخلية أو الخارجية (Berberuger, 2011, p28)، ومن بين العملات السائدة في الإمارة آنذاك نجد البياسترو والإسبانية والريال الشوكوتي (الرباعي) وهي عملة التجارة الأوروبية في الجزائر قبل الاحتلال (بن شيخ، 2017-2018، ص 143) كذلك ذكر هايدو العملة الزيانية التي كانت تتداول في الإمارة وكذلك وجد في الإمارة الدينار الحفصي و الدورو الإسباني المقابل للإيكو و الدوكا كما نجد كذلك المثلقال الفاسي والسكينة التركية بالإضافة إلى السلطان الذهبي و الموزونة المغربية التي تساوي صوردي ونصف هي متداولة بكثرة في منطقة الزاوة، أضف إلى ذلك المحبوب التونسي الذي يساوي عشرين موزونة (الزبيري، 1984، ص 71) كما نجد الريال الكورنتيو وهو يساوي أربع ريلات أي 2.40 سنتيما وكان سكان منطقة القبائل كثيرا إلى الكورنتيو قصد إذابتها لصناعة الحلي الذهبية وعلاوة على ذلك نجد الإيكو الفرنسي الذي يساوي في قيمته ذلك الموجود في إسبانيا وهناك كذلك المثلقال الفاسي

الذي يساوي 170 أسبيرا وكذلك الدورو الجزائري الذي يساوي 2 بوجو (بن شيخ، 2017-2018، ص 143).

والجدير بالذكر أن سكان إمارة كوكو ساروا على نهج سكان إمارة بني عباس المشهورين بصناعة النقود المزورة (بومولة، 2009-2010، ص 56) حيث كان صناع إمارة كوكو يصدرونها إلى الأسواق الأمر الذي عرضهم للمضايقة من طرف سلطان مدينة الجزائر (شلوصر، 2007، ص ص 96-97)، ويشير إلى ذلك حمدان خوجة في قوله: « يوجد في هذه القرى كذلك مشاغل تصنع فيها النقود المزينة فالأهالي ذوو مقدرة فائقة على نقش المعادن و تقليد جميع أنواع النقود مثل نقود الجزائر وقروش إسبانيا (خوجة، 2005، ص 29) هذا ما جعل التجار المتعاملين يخشون عملتهم» (مجهول، ورقة 16)، ولم تكن هذه الظاهرة محصورة في الزاوة الشرقية والغربية فحسب وإنما عرفت بها بعض المناطق الأخرى من الوطن (قاسيمي، 2007، ص 80) وقد لجأت السلطة المركزية إلى استعمال عدّة وسائل للحدّ من هذه الظاهرة التي أضرت باقتصاد البلاد.

وهذه بعض العملات المستعملة في منطقة الزاوة وما يقابلها من عملات أخرى:

أ- السكة الثقيلة:

- الإيكو الذهبية.
- المثلقال الفاسي.
- السكينة التركية.
- الزبانية التلمسانية.
- 1. الرباعية الإسبانية (ريال رباعي) أكثر رواجاً من الريالات الفضية دورو أو خمسين وخمسة فرنك (Federman, 1867, pp112-121).
- 2. الثمانية الرباعية واسعة الانتشار في الهند و الصين أهم سكة في الجزائر.
- 3. الريال الإسباني.
- 4. الموزونة في الصحاح كما في محاضر نائب الأحكام.

ب- السكة المشاعة والعادية:

منها العملات الخاصة ووضعية نحاسية وفضية وذهبية يتصرف فيها البايات:

- البورية النحاسية 6 منها: الأسبير أو الدورو يساوي 5.50 فرنك.
- الأسبير فضية 10 منها: ريالا إسبانيا تصنع أيضا مع الأسبير والبورية.

- الرباعية الزبانية التلمسانية شائعة الرواج في كوكو وبسكرة وبني العباس وتونس والجزائر.
- السلطاني الذهبي يساوي 140 أسير صناعة الجزائر شائع الرواج.
- السكويين ذهب يساوي 108 موزونة.
- المحبوب يساوي 72 موزونة (ساحي، 2015، ص153).
- الفيلون يساوي 5.43 فرنك غير ثابت و قد ورد ذكره في كتابنا السابق.
- عملة النحاس.
- فلس ¼ صوردي.
- الدرهم 5/1 فلس.
- الصوردي 30 درهما.
- الموزونة يساوي 180 درهما أو رباعية 240 درهما أو ريال كوارتز مذكورة أيضا.
- الخروبة فضية يساوي 15 درهما.
- البطاقة شك يساوي ريال كوارتز و يساوي أيضا 60 سنتيما - (Berberugger, 1864, pp303, 307).

ج- العملات الأجنبية العالية التداول:

- الموزونة المغربية تساوي صوردي ونصف وهي متداولة جدا في نطاق الزاوة (ساحي، 2015، ص154).
- المحبوب التونسي يساوي 7 ريالات كوارتز أو 20 موزونة.
- الزبانية يساوي 7 موزونات أو 10.5 صوردي.
- الزباني بوجه ثلاث مرات زباني عادي 21 موزونة أو 3.45 صوردي.
- الريال الكورنبي يساوي 4 ريالات كوارتز 20.40 سنتيما.
- علق هايدو على الزاوة واليهود العاشقون كثيرا للريال الكورنبي لإذابتها وصناعة الحلي الذهبية وربما صاغ البطاقة شك ويساوي 60 سنتيما أو 8 موزونات.
- الإيكو الإسباني 125 أسيرا تصرف بها جعفر باشا ورفعها إلى 130 في 1580.
- الإيكو الفرنسي أو الصولداري الإسباني نفس قيمة الإسباني.
- السكين السلطاني القسنطيني يساوي 150 أسير.

- الميثقال الفاسي يساوي 170 أسيرا 252 في عهد جعفر باسا كما رفع السلطان إلى 175 أسير.
- الدورو الجزائري في عهد حسن يساوي 2 بوجو.
- الدينار السلطاني ذهب يساوي 10 رايالات كوارتز ثم 12 ريالاً و7.20 فرنك.
- الميثقال يساوي أقدم العملات ذكرها السيوطي 24 خروبة.

يسود الاقتصاد التقليدي في الزاوة أغلب معاملاته الداخلية والخارجية، اقتصاد المقايضة وتبادل المواد المنتجة محلياً بالمسوقة وربما بادلت القرى شعر الماعز والصوف و الزبدة بالمواد الغذائية كالحبوب و التمور أو بالمواد الحديدية والألبسة، لكن الوثائق العدلية تتعامل كتابيا بقيم الريالات الصراح و الضبلون و الموزونة و الصوردي (ساحي، 2015، ص 155).

خاتمة:

من خلال ما تمّ استعراضه من مجمل المظاهر الاقتصادية والاجتماعية التي تؤيدها المبادلات التجارية الخارجية والداخلية وفي مقدمتها الأسواق في إقليم إمارة كوكو وطبيعة نظم المبادلات التجارية المختلفة البحرية منها والبرية الصادرة والواردة، بالإضافة إلى ما تمثله هذه الفضاءات الاقتصادية من دور هام في حياة المجتمع الزواوي في العهد العثماني بالجزائر، فإننا نتبين حجم المبادلات التجارية والاقتصادية الهامة التي كانت تتمظهر في نوع السلع المباعة والمقتناة من طرف ساكنة إمارة كوكو وما جاورها، والتي تعددت أنواعها بين الغذائية والصناعية والحرفية وحتى الحربية منها، كما تبين حجم نظام الصرف والبيوع وتعدد العملات ونظام المعاملات المتداول بها بين الجزائري والاسباني وحتى المغربي وما يقابلها من أوزان ومكاييل، وهو ما يبين نوعية المرتادين لهذه الأسواق من غير سكان زاوة، والذين رخصت لهم السلطة العثمانية التعامل مع السكان في المدن و الأرياف، مقابل ضوابط وقوانين يشرف عليها أمناء الأسواق وضباطها، بالإضافة إلى بروز دور هذه الأسواق في الحياة العامة لسكان الإمارات والقوى المحلية، خاصة ما تعلق بالجوانب السياسية والاجتماعية والدينية، فهي تجعل من هذه الفضاءات التجارية مؤسسات مركّبة متعددة المهام والوظائف؛ لتكون بمثابة القلب النابض والرئة الحيوية لسكان إمارة كوكو الذين يغلب عليهم الطابع القروي الصغير والضخم المتباعد أو المتقارب في السكن؛ بما يجعل من السوق الأسبوعي أو الشهري أو الموسمي حتى نقطة التقاء ضرورية وفاعلة لتكوين العلاقات والمصاهرات والتحالفات وفض الخلافات والنزاعات، وحتى الاستنفار في الحرب.

الملحق رقم 01: إمارتي كوكو وبني عباس بمنطقة زواوة والطرق السلطانية والتجارية.

عن جمعية جهيماب GEHIMAB



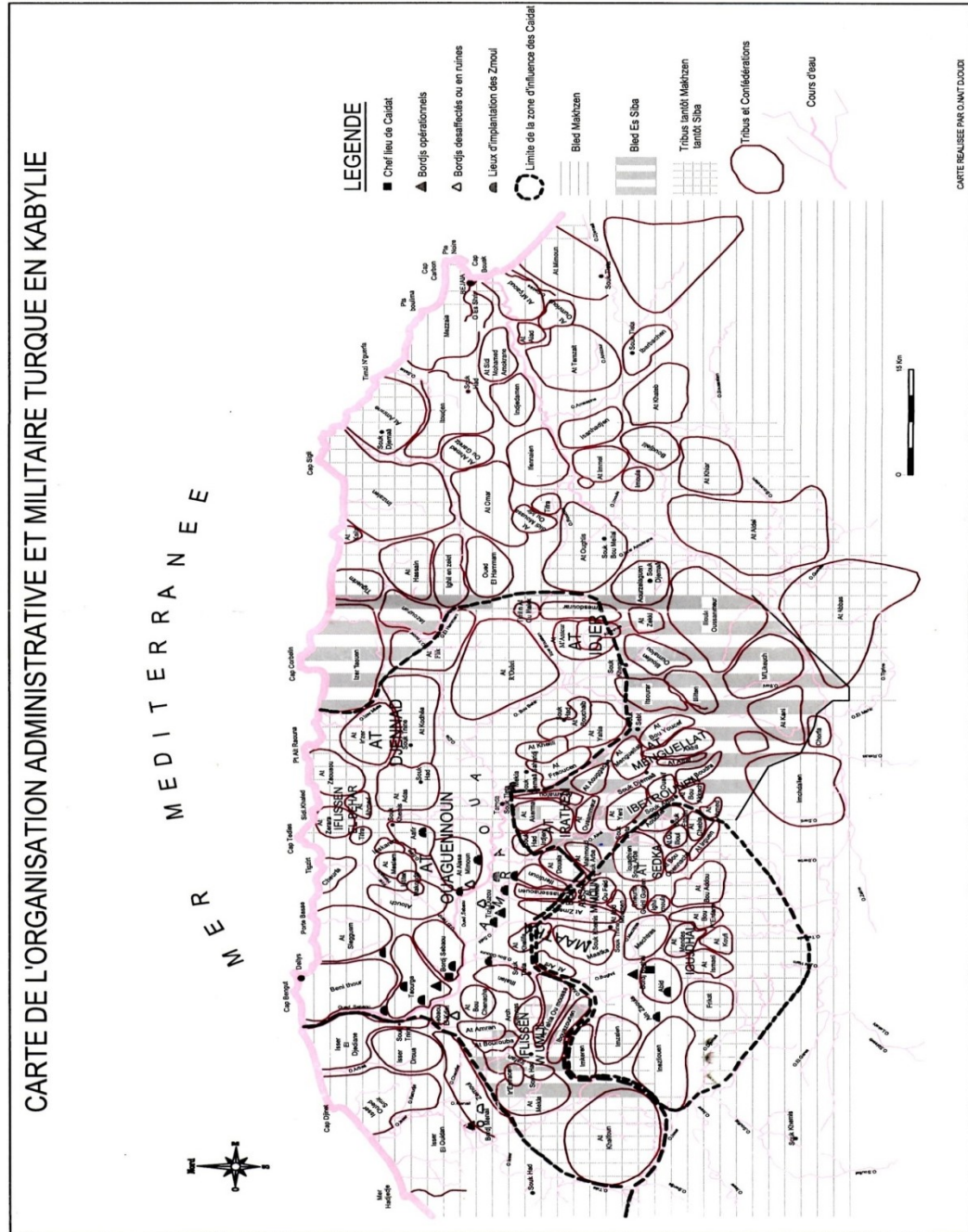
الملحق رقم 02: أمر من محمد باشا إلى أهل بجاية بتعيين مصطفى بن أحمد المقراني قائد قاندا وناظرا

للكراسته والزيت

وقبطانا للميناء في بجاية.

39
 ليحفظ الواقع على هذا الأمر التزم والخطاب الواضح الجسيم النافذ
 أوامره العلية شأنه وفداه من الغواص والعمال وأولادنا البطار والحكام
 والخاص والعام وجميع المتصرفين في الأحوال وسائر الأحكام بلادنا
 الجزائر الحبيبة بالله تعالى من سوء الدوائر وسائر أعمالها خصوصاً
 بلاد بجاية تسدد الله الجميع ووفق الكل إلى صالح القول وحسن
 الصنيع أما بعد فإن حامله الأمر والأمر فينا السيد مصطفى ولد
 المرحوم السيد أحمد فايد كان قد أنعمنا عليه وولناه فايداً على
 محروسة بجاية حاكماً فيها من جميع أمورهم وجماعة شؤونهم
 بحيث لا يتصرف فيهم أحد سواء ولا يتصرف فيهم أمورهم وجماعة
 شؤونهم على حسب العادة القديمة والحري في السالفة المستقيمة عادة
 المتقدمين أمثالهم مع كونه متبعاً للنسب بعة المحمية على ما يجبها أفضل
 الصلاة وأزكى التحية وفداً وصيناً له محبة واحتراماً ورعيه
 وإكرامه وحقه الشئ جنابه بحيث لا تقتد له حرمة ولا يتصرف
 له جناب ولا يصله أحد بأداة ولا يكرمه ولا يفاسرنا بفاسرته غيره
 ولا لأحد اليد من سبيل بوجه ولا حال كما أنعمنا عليه أيضاً بزيادة
 الكراسته وهو المتولى فتحها وأمرها على يديه وكذلك أنعمنا
 عليه بزيادة الزيت وهي على نفقته وكذلك أمر المرشد وهو الفيلان
 وهو المتصرف فيها وهو لا يملكها فهو المتصرف فيها وعلى
 نفقته دور غيره ولا يتصرف فيها أحد سواء مع الحرمة الكاملة والميرة
 الشاملة أنعاماً تاماً شاملاً عاماً بحسب الواقع عليه أن يعمل
 بما فيه ولا يتعداه ومن تعد الحد فقد استوجب الحد والله الوافق
 للصواب وإليه المرجع والمآب لا ريب فيه ولا معبود سواه
 والأمر كله لله وهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
 العظيم والسلام وكتب عراذير المعتمد المجد مولانا الد ولائع السيد
 محمد باشا أيداه الله بمحمد أو ايل محمد الأولى

الملحق رقم 03: خريطة تبين التنظيم الإداري والعسكري لمنطقة القبائل خلال العهد العثماني.
إعداد الباحث



قائمة المصادر والمراجع:

- (1) أرزقي شويتام. (2009). المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني. دار الكتاب العربي للطباعة والنشر. الجزائر.
- (2) الحسن الوزان. (1985). وصف إفريقيا الإصدار 2، المجلد 2. (ترجمة محمد حجي و محمود الأخضر)، دار الغرب الإسلامي، لبنان.
- (3) الزبيري محمد العربي. (1984). التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830، المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر.
- (4) حمدان بن عثمان خوجة. (2005). - المرأة. سلسلة التراث، (تقديم وتعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري)، منشورات ANEP، الجزائر.
- (5) زيد بن قاسمي. (2007). قيادة سيباو 1720-1857 مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر.
- (6) ساجي أحمد. (2015). الزواوة من القرن 16 حتى 18 - عهد إمارة كوكو 1511هـ - 1767 م، دار الأمل للطباعة والنشر، تيزي وزو، الجزائر.
- (7) علي بن شيخ. (2017، 2018). مملكة كوكو، ونظامها السياسي والعسكري، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه، قسم اللغة والثقافة الأمازيغية: جامعة تيزي وزو، الجزائر.
- (8) فندلين شلوصر. (2007). قسنطينة أيام أحمد باي 1832-1837. (ترجمة أبو العيد دودو)، الجزائر عاصمة الثقافة العربية: وزارة الثقافة.
- (9) مارمول كاريخال. (1989). إفريقيا ج2. (ترجمه عن الفرنسية محمد مكي وآخرون)، دار نشد المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط المملكة المغربية.
- (10) مجهول. سيرة الزواوة، مخطوط بقسم المخطوطات. رقم 3012 المكتبة الوطنية الحامة الجزائر.
- (11) ناصر الدين سعيدوني. (2000). ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت. لبنان
- (12) نبيل بومولة. (2013). صفحات من تاريخ بجاية في العهد العثماني، إمارة المقرانيين في القرن 10هـ/16م، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر
- (13) نبيل بومولة. (جوان 2017). إستراتيجية الأتراك العثمانيين اتجاه القوة الناشئة ببجاية. مجلة العلوم الإنسانية، مجلة دورية علمية سداسية محكمة متعددة التخصصات، ج 2 (العدد السابع)، الجزائر.
- (14) نبيل بومولة. (2009-2010). القوى المحليّة في منطقة القبائل الشرقية في القرن 10هـ 16م بني عباس نموذجاً.، جامعة الجزائر. الجزائر

- (15) هانوتوولوتورنو. (2013). منطقة القبائل الكبرى، العادات القبائلية ، التنظيم السياسي و الإداري. (ترجمة مزيان الحاج أحمد قاسم)، منشورات كرجا تيزي وزو، الجزائر.
- (16) يحي بوعزيز. (1980). طرق القوافل والأسواق التجارية الصحراء الكبرى كما وجدوها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر. مجلة الثقافة (عدد 59)،
- 17) (A) Berberuger. (2011). les turcs en Kabylie, éditions les belles lettres, Alger.
- 18) (CH) Aucapitaine. (1860- ,1859). les colonies noirs en Kabylie,in R.A ,n4.
- 19) Berberugger. (1864). captif et patron a Alger en 1640, in R .A ,n8.
- 20) E.CARETTE. (1844). exploration scientifique de l'Algérie pendant les années (1840,1849, 1842) études sur la Kabylie proprement dit . paris , imprimerie nationale p.
- 21) Federman. (1867). notes sur l'histoire de l'administration du beylik de titri,in R. A , n11.
- 22) Nabil BOUMOULA .Mai, (2015) .La kalaa des Béni Abbès en Algérie, un Royaume au cœur de la Kabylie .
- 23) Nabil boumoula .(2012). stratégie des ottoman vis-à-vis , la famille des mokranis aux 16eme siècles . Bejaia Ville d'histoire et de civilisation .Bejaia.
- 24) Nait Djoudi OulhadJ .(2018) .AT Abbés et koukou ,étude géographique, et ethnohistorique de la kabylie, ottmane, édition El amel. tizi ousou.
- 25) P. Fabar (E) Daumas .(1847) .la grande Kabylie, études historiques .les éditions chapitre , Paris.